٦ ـ مدن الحضارات
فى القديم والحديث
للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

قرطبة :

يحق للحضارة العربية الإسلامية أن تفخر بما كان لها فى عدوة الأندلس من تاريخ مجيد ، فلقد كانت الحضارة الشرقية الإسلامية فى المشرق يقابلها حضارة إسلامية شرقية فى المغرب ، ولم يظهر فى المشرق عالم جليل أو محدث كبير ، أو شاعر شهير ، أو فيلسوف حكيم ، أو وزير له خطر ، أو أمير له قدر ، إلا ظهر فى المغرب من يدانيه علماً أو يناقسه قدراً أو يزاحمه محلاً

فلقد وقعت المفاضلة بين ابن رشد والطوسى[1] ، وبين ابن زهر الحكيم وابن سينا ، وبين ابن فرناس والفارابى ، وبين ابن هانىء الشاعر والمتنبى ، وبين ابن زيدون والبحترى ، وبين ابن عبدون والأصمعى ، وبين أبى مروان البصرى والمعرى ، فقد كان الشبه بين النظيرين فى الفن الواحد قريباً ، وكان الفرق بين المتماثلين غير بعيد

وكان حظ المدن من تلك المفاضلة ونصيبها من تلك المقابلة حظ الأمس من أهل العلم والنظر والجلال والخطر ؛ فهذه بغداد فى المشرق على نهر دجلة ، وتلك قرطبة فى المغرب على الشاطىء الغربى من نهر الوادى الكبير

ولقد أتيح لكثير من المؤرخين فى العصور التالية لسقوطها أن يزوروا تلك المدينة الضائعة فى ذلك الفردوس الإسلامى المفقود . وزارها فى العصر الحديث اثنان من أهل النظر والرأى والأدب والعلم . هما الأمير العربى المسلم الغيور شكيب أرسلان[2] والكاتب المصرى الرحالة محمد لبيب البتانونى ـ صاحب الرحلة الحجازية ورحلة الأندلس

ووصف كل من الكاتبين المدنية الإسلامية على حالها اليوم ، ثم تطرق بهما الحديث إلى ذكر تاريخها وشىء من أحداثها ، وذكر الجامع العظيم فيها

(١) رحلة الأندلس لمحمد لبيب البتانونى ص ٤٣

(٢) تجد وصفا ممتعا لها فى كتابه الحلل السندسية للأمير شكيب طبعة الحلبى جـ ١

رأى البتانونى قرطبة فى العقد الثالث من القرن العشرين الميلادى (سنة ١٩٢٧) فلاحت أمام عينيه عربية المظهر ، شرقية المنظر (وشكل مبانيها يكاد يكون عربياً صرفاً)[1]

ورآها الأمير شكيب بعد ذلك ببضع سنوات ، وقد طحنتها رحى الفتنة حين تأليفه كتاب الحلل ، وغيّرها حلول المصائب والأحداث ، واتصلت الشدائد على أهلها فلم يبق منهم بها وقت زيارته لها إلا الخلق اليسير[2]

ولقد لفت حياء نسائها نظر البتانونى فأثنى عليهن ونعتهن بالاحتشام وغض البصر والإطراق إلى الأرض فى غير تحديق إلى الرجال[3] . والظاهر عندى أن ذلك الحياء الجميل يكاد يكون طبعاً فى نساء الأندلس اليوم ، فقد رأيت كثيراً من فتيات أسبانيا المتعلمات يفدن إلى جامعة (تور) بفرنسا لتعلم الفرنسية فى عطلة الصيف ، ورأيت منهن الحياء والعفة والبعد عن التبرج المقوت الذى كنت أنميه على نساء فرنسا ، ورأيت منهن ما يؤيد قول البتانونى (ومع أن بلادهم حارة جداً لا تكاد ترى صدورهن عارية)

على أن هناك رحالة ثالثاً معاصراً تعرض لذكر الأندلس فى كتابه (السفر إلى المؤتمر) وهو المرحوم أحمد زكى باشا ؛ إلا أن حديثه عن الأندلس جاء فى عرض كلامه عن رحلة إلى المؤتمر ، ولم يكن حديث الإصالة كما فعل الأمير شكيب والبتانونى

وأغلب المعلومات التاريخية التى أوردها الرحالتان مستقاة من نفح الطيب الذى اختص قرطبة فى الجزء الأول بحديث طويل . ويروى المقرى صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد المغربى أو عن الشريف الأدريسى ، أو عن الحضرمى

ومعتمدنا فى كتابة هذا الفصل عن قرطبة على كتاب نفح الطيب الذى يعد بحق مرجعاً وافياً لتاريخ الأندلس

ولقد وصف كثير من العلماء (قرطبة) فى أزهى عصورها وأجمل أيامها ، ويستشهد (المقرى) بأقوال هؤلاء العلماء ، إلا أنه لا يذكر أسماءهم ولا يدلى بخبر عنهم ، فهو يقول مثلاً : قال بعضهم ، وقال بعض العلماء ... وفى الوقت نفسه يذكر أسماء الأعلام منهم ، أو الذين وصل إليه علمهم ، واشتهر عنده اسمهم : كالحجازى والحضرمى وابن سعيد والبكرى

(١) رحلة الأندلس ص ٥٣

(٢) الحلل السندسية جـ١ ص ١٤٣ (٣) رحلة الأندلس ص ٥٣

ولقد ذكر ابن سعيد عمارة قرطبة فقال : إن العمارة اتصلت بها فى أيام بنى أمية ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضاً ، وذلك من الأميال أربعة وعشرون فى الطول وستة فى العرض ، وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادى الكبير .

وذكر آدم متز المستشرق فى كتابه : « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، نقلاً عن ابن عذارى المراكشى صاحب كتاب البيان المغرب أن عدد الدور التى كانت بها الرعية دون دور الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ، وأن مساجدها ثلاثة آلاف : (الجزء الثانى من الحضارة الإسلامية ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ص ٢٢٧) .

ولقد بلغ من اتساع قرطبة وامتداد مساحتها واتصال العمران بها أن عدد أرباضها بلغ واحداً وعشرين ربضاً ، وفى كل منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره[١٦]

وفى خارج قرطبة امتدت قرى كثيرة قدرها ابن سعيد بثلاثة آلاف قرية . وهو عدد إذا فرضنا أن المبالغة التاريخية قد ضاعفته ، فهو يدل بغير شك على ازدحام القرى حول تلك العاصمة الإسلامية ، كما تزدحم القرى الصغيرة والكبيرة حول (لندن) اليوم مثلاً ، وتمتد إلى عشرات الأميال . وقد قدر لنا أن نرى هذه القرى اللندنية من أعوام خلت

وكان القرويون من أهل أندلس لا يقطعون تردهم على قرطبة واختلافهم إليها فى كل مناسبة صغرت أم كبرت ، وكان أعظم ما يجذبهم[٢] إليها شهود يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة والتسليم عليه ومطالعته بأحوال بلدهم

ولقد بلغت المنافسة بينها وبين بغداد حداً عظيما ، حتى لقد أحبها المؤرخون من أهلها ، فحابوها بالوصف ، كما يقول المرحوم شوقى : [ولكن من أحب الشىء حابى] ...

وحاول كثير من وصافها أن يلحقوها ببغداد فى أيام عظمتها ، حتى لقد زعم قوم من أهلها أنها كأحد جانبى بغداد ، وإن لم تكن كأحد جانبيها فهى قريبة من ذلك

(١) نفح الطيب . المطبعة الأزهرية ج ١ ص ٢٩٣
(٢) المصدر نفسه

ولم تكن قرطبة خاملة الذكر وضيعة المحل قبل الفتح العربى ولكنها كانت عامرة فزادها الفاتحون من المسلمين عمراناً ، وزادوها عظمة بما بنوه فى ضواحيها من القصور الكبيرة أشباه المدن الضخمة (راجع تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان حـ ٥ ص ٩٠)

ويغلب على الظن أن قرطبة قبل الإسلام كانت مما شيده القرطاجنيون ، ثم صارت تابعة للرومان سنة ١٥٢ ق . م إلى أن دخلها المسلمون ، وجعلوها حاضرة الملك ومقر الأمارة ، وحاولوا أن يخلعوا عليها من جلال الملك ما يدنيها من عواصم الشرق الكبرى ، ولبث المنافسة فى ذلك الدور العظيم .

وكان فيها نظام الطبقات البنائى كما حدث فى القاهرة وفى بغداد وفى سامرا وفى دمشق وفى غيرها من العواصم . والواقع أن فكرة التقسيم بين الطبقات قديمة منذ الزمان الأول ؛ فلقد كان فى أيام الفراعنة قصور وأحياء للأشراف وأحياء للعامة

وقد عقد المرحوم جورجى زيدان[١] موازنة بسيطة بين دور الأشراف فى رومة إبان عمرانها وبين دور الأشراف فى قرطبة إبان عمرانها كذلك ، وكانت فى الأولى ألفين — على ما رواه (جيبون) وفى الثانية أكثر من ستة آلاف — على ما رواه المقرى نقلاً عن غيره

وأعجب ما فى قرطبة من بدائع الفن وروائع الهندسة العربية آيتان : القصر الكبير والمسجد الجامع . أما القصر الكبير فكان مؤلفاً من ٤٣٠ داراً كالكامل والمشوق والمبارك وقصر السرور وغيرها[٢]

وكان فى هذا القصر من العجائب الكثير سئل عنه ابن بشكوال[٣] فقال بعد كلام : (وفيه من المبانى الأولية والآثار العجيبة اليونانيين ثم الروم والقوط والأمم السالفة ما يعجز الوصف ، ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها فى قصرها البدائع الحسان ، وأثروا فيه الآثار العجيبة ، والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة

(١) تاريخ التمدن الاسلامى حـ ٥ ص ٩١
(٢) نفح الطيب حـ ١ ص ٢١٦
(٣) نفح الطيب

المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص ، تؤديها منه إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الأبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه ، إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والمهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة . . . وفى هذا القصر القباب العالية السمو ، المنيفة العلو ، التى لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها) .

وقد بناه عبد الرحمن الداخل الأموى بعد ما فر من الشرق ووطد نفسه فى الأندلس ملكا ، وزاد الأمراء من بعده عليه كلٌّ على حسب طاقته . ومن المؤلم أن تتطاول يد الزمان وتمتد إلى قصور ذلك القصر فتقتلعها من أساسها ، وتدكها من قواعدها ، ولم يبق منها بعد مثولها للعيان ، وكونها فى الزمان ، نقش ولا أثر ، إلا أثراً يذكر ، وخبراً يسطر ، وقصة تروى ، وحديثاً لمن ألقى السمع

وقد اصطلحت على محو تلك القصور والدور عوامل من الزمن ، ودوافع من الإحن والمحن . أما الزمن فقد تطاول ، والبناء لا يبقى على التطاول ، ولا يدوم على امتداد . وأما الإحن والمحن فقد اختلفت على قرطبة ، وحدثت الثورات ، وفتكت يد التخريب ، وأصبح أهل قرطبة منذ عهد المرابطين عرضة للحوادث وغرضا للشغب . وجاء المتعصبون من النصارى فحاولوا أن يزيلوا للأسلام كل أثر ، وأن يدكوا للعرب كل قاعدة ، وأن يهدموا من الحضارة العربية كل ركن ؛ فزال البهاء ومات البناء ، وبكى حين لا ينفع البكاء . وهل يرد الملك المضيَّع فيض الدموع ، أو يعيد المجد المحطم وقد الضلوع ؟ ولم يدم ذلك الجلال طويلا . ففى القرن الخامس الهجرى أخذ كل شىء ينذر بسقوط قرطبة[1] . وقبل ذلك بزمن كانت هذه العاصمة الجميلة مسرحا للفتن ، وميداناً للمحن[2] . وصار الخلفاء يولون ويعزلون فى أجل قصير وأمد قريب . فتولاها فى مدة يسيرة ستة من الأمويين ، وثلاثة من بنى حمود ، مما انتهى إلى التفرقة والانقسام

(١) عن المؤرخ الألماني « آشباخ » فى كتابه : « تاريخ الأندلس » فى عهد المرابطين والموحدين

(٢) رحلة الأندلس

وكان الأمراء يختلفون ويحتربون وتسيل دماء الناس على أيديهم . وقام العداء بين أمير وأمير ، ومدينة ومدينة . ودارت الحرب بين طليطلة وقرطبة . وظلت بضعة أعوام تتخللها معارك مضطرمة بين الفريقين ، انتهت نهاية مؤلمة ومصيراً محزناً بالنسبة إلى قرطبة وحاكمها ابن جهور . فقد ظفر صاحب طليطلة بابن جهور وضرب الحصار على العاصمة القديمة للأندلس ، ولم يرفع عنها إلا بعد أن أسيلت الدماء ، وانهارت على أثر ذلك دولة بنى جهور فى قرطبة[1]

ومن هذه الفتن أيضاً ما حدث بعد ذلك بقليل ، فقد هاجم أهل طليطلة ومرتزقة قشتالة قرطبة على غرة ، فسقطت فى أيديهم بلا مقاومة ، ولكن نشبت بين الفريقين فى الزهراء — مجمع القصور الملكية — معركة دموية دافع فيها الحرس عن القصور دفاعاً شديداً[2] . وقتل ابن الأمير ابن عباد ، ورفع رأسه على رمح وطيف به فى شوارع قرطبة —

ولم يطل ملك بنى عباد ، حتى تغلب عليه المرابطون سنة ٤٨١ فالموحدون سنة ٥٣٩ ؛ وانتقصت أطراف هذا الفردوس الجميل شيئاً فشيئاً

[الحديث موصول]

محمد عبد الغنى حسن

(١) يوسف آشباخ فى المصدر السابق

(٢) المصدر نفسه

إدارة البلديات — طرق

تقبل العطاءات بمجلس المنصورة البلدى لغاية ظهر ٩٤١/٩/١٤ عن توريد لحم قوالب أو كرديف أو هندى أو ناتال خشن وتطلب الشروط من المجلس نظير ٥٠ مليما ويقدم الطلب على ورقة دمغة فئة ٣٠ مليما

٨٥٣٤